

علم اللغة من التنظير إلى التنظيم بحث في التأصيل والتتبع التاريخي

د. عدي حسين علي

الجامعة المستنصرية / كلية التربية

ملخص

يعدّ هذا البحث لمحة توصيفية لعلم اللغة التاريخي، ومحاولة لفهم وتقييم بعض الدراسات التي أرخت علم اللغة والدرس اللغوي الكلاسيكي، فقد كانت الدراسة طرحاً موضوعياً لقراءة جديدة في أصالة وتأثير الدرس اللغوي، بالإضافة إلى وضع معيار زمني للغة وأنظمتها التي بقيت لأزمان عدة تحت تأثير الطرح القديم والنظام التقليدي في توثيق المفهوم والمنهج، فهو محاولة في فتح الأفق الزمني والعودة بعلم اللغة إلى الوراء قليلاً، مستفيداً من الكتابة والمعجم والقواعد لتكون المحاور الرئيسة في تنظير منهج لغوي تاريخي يحدد البعد التنظيمي لبدایات علم اللغة زماناً ومكاناً.

Abstract

This is a research overview descriptive science historical language, and try to understand and evaluate some of the studies that have chronicled linguistics and language lesson classic, it was a study put forward substantively new to read the authenticity and influenced by the lesson of language, he is trying to open the time horizon and return with the knowledge of the language back a little, taking advantage of the writing and the lexicon and the rules to be the main themes in the endoscopy linguistic approach historic determines organizational dimension to the beginnings of linguistics at the time and place

علم اللغة .. من التنظير إلى التنظيم

بحث في التأصيل والتتبع التاريخي

شهدت الحركة الفكرية والمعرفية منذ بواكير النشوء والنهوض الإنساني جملة من المعارف التي اتخذت من التطور والارتقاء مسلكاً لتهيئة العقل الإنساني لما ستؤول إليه مشارب العلم واتجاهاته، فقد كان الإنسان في فجر الخليقة يتطلع إلى منافذ التفكير والتدبر وانتظام السلوك والمعلومة في التصور الذهني، فهو بانفرادته التنظيمية التي جعلت من مضامين تفكيره بعداً فريداً يميزه عن سائر المخلوقات قد اتخذ من السلم النوعي طريقاً لإثبات تلك المهارة التي أعيت نظريات الباحثين في الوقوف على حكم نهائي يمكن من خلاله أن يستغني الباحث بمفهوم واحد يغني عن المفاهيم المتعددة، إذ ما يزال البحث قائماً في معظم مكامن اللغة وعلم اللغة، وفي كل مناسبة وحديث يلجأ الكلام إلى وضع مجموعة من الفرضيات التي لا تنتهي إلى حكم قاطع، ولا سيما فيما يتعلق بأمور النشأة والأصول والتبكير والتبني وما إلى ذلك.

إنّ هذا الأفق الطويل الذي يهيمن على حيثيات علم اللغة من أحكام وقوانين ونظريات ومناهج إنما هو جدل استمدّ الطرح والنتيجة من التجربة اللغوية التي بين يدي الباحثين والمتخصصين، وهذا الأمر لا يُعدّ كافياً للحصول على نتائج نهائية قطعية يمكن الاعتماد عليها في البحث اللغوي، أضف إلى ذلك أن النظام اللغوي ليس نظاماً مستقلاً بذاته بل هو جزء من المعرفة الإنسانية التي كان الباحثون وما يزالون يحاولون الانتهاء إلى نظريات تنتمي إلى الواقع أكثر من كونها فرضيات أو مغامرات ميتا منطقيّة.

فالبحث اللغوي الحديث انحرف بالمسار التفكيري عما كان عليه في السابق، والمعياريّة الفلسفية التي أحاطت به لم تعد شغل المتخصصين في هذا الجانب، ولا سيما الجانب التحليلي التأصيلي الذي يعدّ الثيمة الرئيسة في البحث اللغوي التاريخي الحديث، وليس على هذا الصعيد فحسب بل صار التحليل بشقيّه الخاص والعام هو أساس الأنظمة المعرفية بشتى أصنافها وخاصة علم اللغة الحديث، فمن دون التحليل والتجربة والتطبيق لا يعدّ البحث اللغوي كاملاً منسجماً مؤهلاً لأخذ موقعه المعتبر ضمن البحث العلمي الرصين.

إنّ هذا الأمر الذي لطالما أكده المختصون بالمنهج التاريخي لا يتمّ إلا عن طريق معالجات ذات أسس بحثية تنتمي إلى الواقع العلمي المحض بعيداً عن شبهات التعصب والتكسب والشهرة، آخذين بنظر الاهتمام ما آل إليه درس اللغوي الكلاسيكي وما طرأت عليه من مؤاخذات ومطارحات، فكان لزاماً على البحث الحديث أن يبدأ مسيرته بتصحيح بعض المفاهيم والمناهج والمصطلحات التي ينظر إليها الكثيرون بأنها مشوبة بالنقص أحياناً أو بالوهم أو بالغلط أو التقصير في أحايين أخرى، فالقاعدة التي أُسس عليها علم اللغة لم تكن ضمن دائرة البحث الرصين الذي لا يمكن إحاطته بالنقد والرد، بل على العكس تماماً فقد

تعرض هذا المضممار إلى الكثير من النقود التي كثر فيها رد النظريات والأفكار والاصطلاحات وابتداع أخرى حلت محل سابقتها التي حلّ محلها فيما بعد غيرها حتى يومنا هذا ولربما إلى ما لا نهاية.

ويبدو لي أنّ السبب في ذلك التقلقل في وضع منهج تام وواضح أعزوه إلى محورين مهمين أهملهما البحث اللغوي أيما إهمال على الرغم من أهميتهما، فالمحور الأول ينتمي إلى اللغة والآخر ينتمي إلى علم اللغة، فما يتعلق باللغة ينطلق من مبدأ الرد على سؤال جدلي مفاده هل اللغة سبقت العقل أم العقل سبق اللغة؟ فإن كانت اللغة قد سبقت العقل انطلاقاً من فكرة التوقيف في النشأة فهذا يجعلها نظاماً جامداً لا يمكن للتطور والتغيير أن يتخللها، شأنها شأن أي جزء أو نمط من أنماط التكوين الإنساني، فاللغة بسبقها للعقل تعني أنها غير خاضعة لظروف التطور اللغوي الذي يتحكم العقل به على مَرّ مسيرة الإنسان اللغوية، ومن المعلوم أنّ العقل ما يزال عرضة للتشكيك في نمط تكوينه، فهل هو هبة من الله تعالى أم إنه منجز تطوري للإنسان، على اعتبار أن الحيوانات بدأت عقولها تأخذ منحى آخر لا يقتصر على الغريزة المطلقة، فالكلاب البوليسية استطاعت من خلال التدريب أن تكشف المخدرات والمتفجرات، فضلاً عن كونها حارساً أميناً، ناهيك عما يخرجها السيرك من إبداعات عقلية لكثير من الحيوانات، هذا الأمر يحيل العقل إلى المنجز الإنساني أكثر من كونه هبة خالصة، ومن هذا المنطلق يحتاج البحث إلى تحديد مفاهيم مهمة يجب الوقوف عليها لكي نستطيع أن نجعل من البحث اللغوي بحثاً متكامللاً لا يدخله اللغظ والتشكيك، فالعقل هو جوهر التفكير واللغة لا يمكن إنجازها إلا عن طريق التفكير، فالذي يفكر لابدّ أنه يتكلم في سره، فيا ترى عندما مَرّ الإنسان بمرحلة عدم الكلام، كما يدّعي الكثيرون^(١)، كيف كان يفكر؟.

إن قدرة البحث اللغوي على حلّ هذا الإشكال يجعل اللغة نظاماً معرفياً متكامللاً، إذ يستطيع الباحث أن يؤسس تصوراً واضحاً مبنياً على الواقع والتجربة الصحيحة في جميع الموضوعات اللغوية المختلفة، وهذه التجربة تستمد قوانينها من معطيات حقيقية بعيدة عن التخمين والظن والاجتهاد الشخصي، فترتكز تلك المفاهيم على فهم دقيق لمبررات النشوء والتطور والانتقال الذي يحيل اللغة إلى المادة الصرفة التي يحلم اللغويون في الوصول إليها بسبب تشتت الرأي وتعدد الاتجاهات الذي يصل أحياناً إلى عدد غير منطقي في تفسير المسألة اللغوية الواحدة.

أمّا المحور الآخر وهو أقل وطأة من سابقه فهو علم اللغة أو أرخنة وانتماء مكامن النشأة والظهور، فهذا الأمر يؤدي بالقارئ إلى فهم بعض المدركات بشكل مغلوط، وعلى سبيل المثال يكاد يجمع الباحثون أن علم اللغة بنظامه ومفاهيمه المكتملة قد تأسس على يد الهنود، وأنّ علم اللغة الهندي هو أول مدرسة لغوية أسست نظاماً قواعدياً لغوياً^(٢)، وربما قد ابتعد هذا المنظور عن الواقع كثيراً فيما يتعلق

بالأصالة والنشأة، نعم إن النحو الهندي قد احتوى في تكوينه أنظمة تركيبية وصرفية وصوتية ودلالية (معجمية)^(٣)، ولكنها ليست وليدة الفكر الهندي فحسب، بل لها مشارب وأصول مختلفة سبقت الفكر الهندي بقرون عديدة وأسست مدارس لغوية موعلة في القدم قد لا تكون بمستوى انضباط الدرس الهندي إلا أنها صاحبة امتياز سبق في تحديد ملامح أصول الدرس اللغوي في مسيرته التاريخية، إذ نلاحظ أهمية الدرس الفلسفي وكيف أخذ الفلاسفة على عاتقهم في مختلف العصور فكرة العقل وتكوينه وتطوره وكل ما يتعلق به، الأمر الذي جعل هذا الميدان من الميادين المبكرة في نشأة هذا العلم، وعندما بدأ كثير من اللغويين ربط اللغة بالعقل بل منهم من جعل اللغة سابقة للعقل فهذا يعني أن اللغة كانت شغلاً شاغلاً للكثير من المفكرين ضمن عصور قديمة وغابرة، وبذلك يكون الدرس الهندي درساً حديثاً جداً لا يتناسب مع ما آل إليه اللغويون في قدم علم اللغة، لذا صار من الضرورة أن نحاول إيجاد مكان تأصيل هذا الدرس والعودة بالزمن أكثر لمحاولة إيجاد تفسيرات واقعية يستمد منها الباحث اللغوي أدواته للوصول إلى نتائج صحيحة.

يبدو واضحاً أن علم اللغة علم نسبي ذو أصول وتفرعات مختلفة الموارد، وهو لا ينتمي إلى مجموعة معينة أو مدرسة خاصة أو مكان ما، فما زال المنهج التاريخي يصرح بأن آراء سيوبه النحوية وجهود الخليل اللغوية إنما هي مجموعة آراء للغويين مختلفين على مر الزمن منذ انبثاق علم اللغة العربي^(٤)، وكذلك بالنسبة لعالم اللغة الهندي بانيني الذي عدّه الباحثون جامعاً للجهود اللغوية الهندية التي سبقته مع وجود جهده وآرائه في كتبه ومؤلفاته^(٥)، وكذا الحال بالنسبة للجهد اللغوي في التأليف للإغريق، فإن ديونسيوس قد جمع آراء النحويين والفلاسفة اليونان في مدونته اللغوية، وكذلك لدى السريان والرومان^(٦)، فهذا التتابع المعرفي المتواشج يجعل الدرس اللغوي المؤرخ منقوصاً بعض الشيء من حيث التأصيل والتأثر والتتبع، ولو أننا استعدنا حقبة لغوية أقدم من التي ذكرت فلربما سنؤسس لمدرسة لغوية تأصيلية غير المذكورة، وهذا البحث اليسير يحاول إمطة اللثام عن حقبة لغوية قد تجاهلها الكثيرون، بل لم يعدوها جزءاً رئيساً لنشأة علم اللغة، واكتفت معظم الدراسات إلى الإشارة إلى أن علم اللغة قد ابتدأ بالهند، صارفةً النظر عن الحقب الزمنية الطويلة التي سبقت هذه المدرسة، والتي أعدها النواة الأولى لنشأة هذا العلم، وما وردنا من مؤلفات وقواعد وآراء قد استمدت ثيمتها الأولى مما سبقها من مدارس أكثر قدماً منها، كما أنّ البواعث الدينية والقومية التي تأسس بسببها الدرس الكلاسيكي تختلف تماماً عن بواعث الدرس الأول الذي سنسلط الضوء عليه في القابل من البحث.

علم اللغة الأول

يقول نيقولاس أوستلر: "إذا كانت اللغة هي التي تجعلنا بشراً، فهي التي تجعلنا بشراً متفوقين، فالعقل البشري غير قادر على التفكير بدون ملكة اللغة"^(٧)، هذه النظرة المنطقية تتيح إلينا أن ننعم النظر في هذه الملكة العجيبة التي رافقت العقل منذ نشأته، ولاسيما بعد التطور السريع للكائن البشري الذي انتشر في جميع أرجاء الكرة الأرضية مما جعله كائناً متبايناً بأساليب التواصل، وبالأخص اللغة ومتعلقاتها، وإنّ هذا التأصيل في نشوء ملكة اللغة والتباين في استعمالها أثار حفيظة العقل أن يجعل من هذا التكوين الغريب نظاماً متجانساً مع الفهم والإدراك، فهذا الأمر يجعلنا نظنّ أنّ أول العلوم التي ابتدعتها الإنسان هو علم اللغة، ليس الأمر تعصباً وإنما نظرة شمولية يتحتمها العقل إذا ما أراد تصنيف العلوم تاريخياً، ليس هذا فحسب بل إنّ هناك إشارات ودلائل تحيل إلى قدم هذا العلم ليس كما يصفه مؤرخو علم اللغة.

لقد أشارت الدراسات المختلفة إلى أنّ هذا العلم قد بنى نظامه وقواعده على أساس التراكيب من صوت ومفردة وإسناد ودلالة، وقد أهملت أساس هذه القواعد والأنظمة، فلا يمكن للغة أن تزدهر وتنتشر من دون كتابة، كما أنّ الكتابة في لغة واحدة نظام يتيم مصيره الموت مع موت اللغة ثم تبدأ القواعد الكلاسيكية تأخذ مجراها في التأليف والتنظيم، ولذلك كان العنصر الأول في علم اللغة هو الكتابة وأصولها وقواعدها وتطورها ومواطن نشأتها وما يشابه ذلك، أمّا المعجم فهو النظام الثاني من أنظمة علم اللغة، وقد اهتمت الكثير من المدونات القديمة جداً بنشأة المعجمات التي أخذت بعداً لغوياً مهماً، ثم تأتي القواعد لتكون ختام الدرس اللغوي القديم والتي أسست أنظمة لغوية شبه متكاملة، استكملها الدرس الحديث بكل ما يحيط به من مناهج واتجاهات ونتائج.

١ - الكتابة

تعدّ الكتابة الدرس اللغوي الأول على اعتبار أنّها جاءت بعد تعلم النطق والكلام، وقد بدأت بالكتابة لأنها نظام يمكن حصره في زمن ما بخلاف النطق الذي هو أولى من الكتابة، بيد أنه مجهول زمان النشأة والحدوث، والحديث عنه ضرب من المغامرة، حتى يُثبت علم الأجناس والأحافير شيئاً يمكن له أن يسعفنا بحقبة زمنية تدل على مراحل تطور الكلام قبل الكتابة، ويبدو لي أنّ علينا الابتعاد عن النظرة الميتافيزيقية لنشأة الكتابة، وهي أنّ آدم (ع) هو أول من اخترع الكتابة، وهناك من يرى أنّ أخنوخ أي النبي إدريس (ع) هو الواضع الأول للرموز الكتابية وما شابه ذلك^(٨)، مستعينين بالحقائق العلمية الملموسة للوصول إلى نتائج أفضل.

بما أنّ الكتابة قد حفظها التدوين منذ بداية رسوم الكهوف فهي جديرة بالبحث والتمحيص، أضف إلى ذلك أنّ الدرس اللغوي الإغريقي وهو درس قواعدي فلسفي ومن المؤكّد أنّه لم يبدأ درساً قواعدياً بل بدأ بسبب نشأة الكتابة بعد ظهور الأبجدية الإغريقية وتطورها وصولاً بعصر أفلاطون، إذ كان اللغوي يعدّ لغوياً إذا ما أتقن اللغة والكتابة ثم تحوّل الأمر إلى تسميته لغوياً بعد أن يضبط القواعد والأنظمة اللغوية وفلسفتها^(٩)، لذا يمكن لنا أن نجعل الكتابة النقطة الأولى للدرس اللغوي القديم.

إنّ كلّ حاكم وأب وأم وصديق وغيره يحتاج إلى التواصل مع من يحيط به، فالقريب منه يمكنه الاستعانة بالكلام لإيصال ما يريد، أما البعيد الذي لا يتسنى له الكلام معه ولا الذهاب إليه فهو بحاجة إلى أن يبعث الكلام إليه في رسالة ما، وهذه الرسالة إمّا أن تكون شفوية وهي يمكن أن تصل كاملة أو ناقصة أو بشكل غير صحيح بحسب فهم حامل الرسالة، أو أن تكون مدونة موثقة تصل بألفاظها ومعانيها إلى المرسل إليه، وبما أن هناك مراحل طويلة من التاريخ البشري افتقر بها الإنسان إلى الكتابة والتدوين فقد جاء اليوم الذي ابتدع فيها الإنسان طريقة ليحول الأصوات الملفوظة إلى رموز مكتوبة، وهذه المرحلة هي مرحلة طويلة معقدة ذات حلقات شبه مفقودة بين حقتين متباينتين هي حقبة الرسوم والنحوتات والإشارات المادية التي تعبر عن حالة كلامية تمثل البواكير الأولى للكتابة، وحقبة الكتابة التامة التي عبرت بها الرموز والكتابات عن اللغة المنطوقة.

قد أجمع الباحثون على أن أولى اللغات المدونة تنتمي إلى ثلاث حضارات هي السومرية والمصرية والصينية، ولا يخرج إنشاء الكتابة الأولى عن هذه الأمم الثلاثة^(١٠)، وقد يكون هذا الحصر منطقياً فربما هناك أمة رابعة هي المخترع الحقيقي للكتابة ولم يحظ التاريخ بهذه المعلومة، مثلها مثل ملايين المعلومات التي يخبئها التاريخ، ولكن تبقى المدونة التاريخية هي اللاعب الرئيس في طرح المعلومة، وتعدّ اللغة السومرية هي الأوفر حظاً من بين هذه اللغات فيما يتعلق بالأصالة والقدم، إذ يرى الكثير من الباحثين أنها اللغة المكتوبة الأولى، وأنّ السومريين هم مخترعو النظام الكتابي للبشرية وأنهم ليسوا متأثرين بأيّ أمة أخرى، فهو نظام جاءوا به من لدنهم بعيداً عن الاستعارة والتقليد^(١١)، وقد استدل هؤلاء الباحثون بدلائل شتى حول موضوع السبق والنشأة، وليس على صعيد الكتابة السومرية فحسب بل كذلك هناك من استدلّ بقدم المصرية تاريخياً وكذلك الصينية.

إنّ هذه الأدلة التي سنتناولها تباعاً جاءت على نحو متباين، فمنها متشابه ومنها مختلف تماماً، فالمتشابه هو ما يتعلق بالعثور على مدونة ما يعود أصلها إلى زمن موغل في القدم، فكلما كانت الرّم أقدم كانت اللغة أقدم، فهناك من عدّ السومرية أقدم اللغات كتابة وهي أول لغة مكتوبة^(١٢)، في حين لم يصرح البعض بمثل هذا الرأي، إذ اكتفى بنسبة الخط المسماري إلى السومريين حصراً، معتبراً أن

السومريين قد يكونون هم من اخترع هذا الخط وربما غيرهم، وهم قد تأثروا بهم، ولم يشيروا إلى مسألة الريادة والقدم في ذلك^(١٣)، والسبب في ذلك أنّ الحكم في مثل هكذا مسائل ضرب من التخمين، فيمكن أن تظهر وثيقة تاريخية ما تفند هكذا آراء، بالإضافة إلى صعوبة تحديد زمن معين لبدء مرحلة تدوين أي لغة، ناهيك عن معاصرة السومرية للغات أخرى تمتلك من مقومات الأصالة والريادة ما تمتلكه السومرية تماماً، وتبقى مسألة الدليل التحليلي الذي ينتمي إلى النظام العلمي هي المحور الأهم في الحصول على نتائج علمية قيّمة، فمن خلال التحليل يمكن لنا أن نتوصل إلى كيفية ظهور الكتابة وتطورها والمقدار الزمني الذي قد يوضح فكرة الأقدم والأحدث، فالكتابة السومرية كتابة مسمارية متطورة عن رمز صوري^(١٤)، وبدايتها عبارة عن رموز صورية تحولت بمرور الزمن إلى رموز كتابية، كما في الحروف الأبجدية التي تحولت من الرمز الصوري كالأليف (صورة رأس الثور)، والبيت (صورة البيت)، إلى حرف الألف والباء الكتابي وكذا الحروف البواقي^(١٥)، وبذلك تكون مراحل انتقال الرمز من الصوري إلى الكتابي السيميائي تحتاج إلى وقت طويل جداً كي تتحول الصورة إلى مجموعة أشكال مسمارية، فما بين الصورة والمسمار هناك انتقالات ليست بالهينة تاريخياً وتركيبياً، لهذا عُد الرمز السومري أقدم الرموز الكتابية.

ليس بعيداً عن وادي الرافدين هناك وادي النيل واللغة المصرية القديمة، التي ناظرت السومرية بكل مقومات اللغة القديمة ومكان علم اللغة، فقد عدّ كثير من الباحثين أنّ اللغة المصرية القديمة هي اللغة الأولى التي اخترعت الكتابة، وأنّ المصريين قد ابتدعوا كتابتهم الصورية من لدنهم دونما تأثر بأمة أخرى، وأنّ زمن الكتابة قد بدأ في القرنين السابقين للأسرة الحاكمة الأولى في عصر نقادة بحدود ٣٣٠٠ ق.م^(١٦)، وقد رفض بعض الباحثين فكرة تأثر المصريين بالعراقيين في النظام الكتابي، كما عدوا فكرة عودة أصول المصريين إلى الساميين أو الرافدينيين فكرة مغلوبة لا تمتّ إلى الواقع التاريخي بصله^(١٧).

إنّ التمسك بهذه الفكرة لا يعطي انطباعاً سلبياً للموضوع بل يحلّ الكثير من التساؤلات التي يمكن لعلم اللغة التاريخي أن يطرحها، فهناك أسئلة مهمة جداً يجب الإجابة عنها هي: ما الدليل على أنّ السومرية أسبق من المصرية أو بالعكس؟ وما مدى اتصال الرمز السومري بالسومريين والمصريين بالمصريين؟ وهذا الحال ينطبق تماماً مع اللغة القديمة الثالثة وهي اللغة الصينية، التي هي لغة تكتب برموز صورية تحولت بمرور الزمن إلى رموز كتابية^(١٨)، فضلاً عن قدمها الذي وصل من خلال بعض المكتشفات إلى الألف الثالث قبل الميلاد^(١٩)، وهنا لابدّ لنا من تحليل منطقي يحيلنا إلى السبق التاريخي مادامت المدونات التاريخية لم تستطع حتى الآن حل هذا الإشكال، إذ يمكن لنا أن نعدّ الرمز السومري أقدم الرموز بالاعتماد على المرحلة التاريخية التي تطور بها الرمز من صوري إلى كتابي، إذ تحتاج هذه الحروف إلى حقبة زمنية طويلة جداً كي ينتقل الحرف هذا الانتقال، فرسومات الكهوف التي تعدّ البداية

الأولى لتحوّل الكلام من أصوات إلى رموز بقيت لأكثر من ثلاثين ألف عام^(٢٠) تأخذ شكلاً متشابهاً في طريقة التعبير دون الانتقال إلى وضع آخر، وإن دلّ هذا على شيء فهو يدلّ على أنّ السومرية عند انتقال حرفها من الصورة إلى الرمز احتاج إلى وقت طويل جداً، إذ يمكن ذلك المرجحين في تبني رأي سبق اختراع السومريين للحرف كدليل علمي.

أما الحرف المصري المتمثل بالهيروغليفي والديموطيقي والهيروطيقي^(٢١) فهو الآخر يتمتع بدليل ذي اهتمام بالغ، فالرأي الذي يرجح بداية الكتابة المصرية في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد^(٢٢) قد يكون مردوداً ؛ لأن الرمز السوري المصري قد ظل محافظاً على شكله ونظامه لآلاف السنين، فاللغة المصرية عاشت وماتت وهي تكتب بهذا الرمز، بخلاف السومريين الذين تحول رمزهم إلى كتابي، كما أنّ ورثتهم من بعض الأمم التي سكنت وادي الرافدين قد تحولت كتابتها إلى الأبجدية السامية^(٢٣)، في حين بقي المصريون محافظين على هذا الرمز زمناً طويلاً جداً حتى بعد حكم الهكسوس والإغريق لمصر، وهذا الأمر لا بدّ أن يُعزى لأسباب دينية، والمعلوم أن لدى المصريين ميزة المحافظة على الفكر والتوجّه، فهم بطبيعة حالهم قليلو التغيير، فالإله آمون بقي المصريون يعبدونه لآلاف السنين دون تغيير^(٢٤)، وكذا الحال بالنسبة للغة والكتابة فعلى الرغم من التطور التاريخي على الصعيدين اللهجي والكتابي إلا أنّ الجوهر العام لهذه اللغة قد ظل مستمراً قروناً عديدة، وهذا ما يجعل هذه اللغة وهذه الرموز قد أخذت وطراً ليس بالقليل حتى وصولها لأول اكتشاف لها.

وبالانتقال إلى الكتابة الصينية فحالها لا يختلف عن سابقتها، فهي تتمتع أيضاً بدلائل يمكن من خلالها عدّ الكتابة الصينية كتابةً قديمة تسبق السومرية والمصرية في القدم، إذ ذكرت بعض المصادر أن اللغة الصينية وبعض أخواتها كاليابانية والكورية والفيتنامية تكتب بطريقة مختلفة عن جميع لغات العالم، فحروفها تُكتب وتُقرأ من أربعة اتجاهات، من اليمين إلى اليسار وبالعكس ومن الأعلى إلى الأسفل وبالعكس^(٢٥)، فهذه الاتجاهات الأربعة التي تمكنت اللغة الصينية من الوصول إليها إنّما احتاجت إلى زمن طويل جداً كي تتطور الكتابة لتصل إليه، فالداعي إلى حاجة الكاتب أو اللغوي لكتابة مختلفة الاتجاه هو الكمّ الكبير من المفردات والتراكيب والأصوات التي تتمتع بها اللغة، ولكي تصل لغة ما إلى هذا المستوى فهي قد مرّت بحقب طويلة وقديمة وموغة في القدم.

إنّ هذه المقارنات والمقاريات لم تكن ضمن اهتمام الدرس اللغوي القواعدي لدى نواة الهند والإغريق والعرب، والمعلوم أنّ الدرس اللغوي القديم قد أهمل جوانب كثيرة تتعلق بالكتابة ؛ والسبب في ذلك عدم امتلاك المشتغلين باللغة مدونات آثارية وفيرة تتيح لهم الخوض في مثل هكذا مضمار، أمّا الآن فقد استطاع الآثاريون أن يتحفونا بعدد كبير وهائل من هذه الأحافير، فضلاً عن غير المكتشف بعد، فهذا

يتيح للدرس اللغوي التاريخي الحديث أن يعيد حساباته وينتقل إلى الماضي أكثر ليتسنى له إظهار منهج لغوي جديد يختلف عن المنهج التقليدي الكلاسيكي والذي سيغير خارطة الدرس اللغوي والمنهج المتبع في البحث والتأليف.

٢- المعجم

قال هاري ساكرز: "بقيت السومرية مهمة لدى حلقات الكتبة، ولدى الدوائر الدينية حتى إلى ما يقرب من ١٢٠٠ ق.م. إذ كانت النقوش البابلية الملكية على مباني المعابد تكتب في السومرية أكثر مما تكتب في الأكادية"^(٢٦)، بعد أن استطاعت معظم لغات العالم من أن تضع رموزاً كتابية للغاتها، وأن العالم بدأ يتخذ مناحي أخرى صوب الحضارة والتمدن والتغيير، والانتقال من مرحلة اللا انضباط في الحياة الاجتماعية والأسلوب الفكري والتنظيري إلى التنظيم والتكوين الاجتماعي والحضاري، بدأ النظام اللغوي يحقق قفزات معرفية تتيح له التفرد والسبق في تصدّر المعارف، فبعد اختراع الكتابة واكتمال المفهوم اللغوي للكتابة جاء دور الترجمة وتبيان معاني الكلمات التي تنضوي تحت إطار المعجم.

إنّ الهجرات والغزوات والمعارك واختلاف اللغات والحضارات أنشأ أرضية خصبة لمحورين مهمين يحيطان بالمادة اللغوية المعجمية وهما الترجمة والمعاني، فالترجمة تأخذ مجراها من خلال إلهام المتلقي معاني الكلمات من لغة لأخرى، أما المعاني فيتأتى دور المعجم من خلال فهم معاني الكلمات في اللغة والواحدة، مستخدمةً التطور التعاقبي للغة سبيلاً لإدراك المتلقي لدلالة الكلمات، ويبدو لي أنّ مسألة الترجمة ذات بعد تاريخي عميق، لكنّها قد تكون حديثة العهد قياساً بالكلام والكتابة، فهي لا يمكن لها أن تكون سابقةً لهذين المفهومين على وفق تتابعية اللغة والدرس اللغوي، والجدير بالذكر أن المدونات السومرية والأكادية في العراق والمصرية القديمة هي أولى محاولات الترجمة العلمية الواضحة التي تؤخذ بعين الاهتمام في البحث اللغوي التاريخي، كما يجب على المتخصصين العودة إلى زمن أبعد في البحث عن النظام المعجمي، وليس الاكتفاء بالموروث المعجمي للهنود والإغريق والعرب^(٢٧) كما لدى الكثيرين، فقد أخرجت حضارة وادي الرافدين مجموعة زاخرة من المعجمات المختلفة، فالأمة السومرية أمة ذات ديانات وآلهة متعددة، وكان أهلها ومن قطن إليهم يتأثر بهم تأثراً سريعاً بعد أن تُطرق مسامعه مجموعة الآداب السومرية من صلوات وأساطير وحكايات لا حصر لها^(٢٨)، فتأخذ مجراها في الترجمة إلى الأكادية والبابلية والآشورية وسائر الأمم التي تحيط بهم، فضلاً عن المراسلات العسكرية والسياسية والثقافية بين تلك الأمم^(٢٩)، والتي تحتاج إلى ترجمة وافية توصل دلالة الكلام بشكله الصحيح، وهذا لن يتحقق من دون معرفة واسعة وخبرة كبيرة للمترجم من حيث المفردات والمعاني، وبما أنّ السومريين والأكاديين قد امتلكوا إراثاً معجمياً هائلاً^(٣٠) فمن البديهي أن تكون المدرسة اللغوية الرافدينية هي التي ابتدعت النظام المعجمي

في علم اللغة، سابقة الهنود والإغريق كما أسلفت، وكذلك سبقت المدرسة اللغوية الصينية التي يغلب على طابعها العام أنها مدرسة لغوية معجمية تهتمّ بمعجمات الترجمة كثيراً لما يغلب على طبيعتها التكوينية من تعددية لغوية وجغرافية وأجناسية وما إلى ذلك^(٣١).

أمّا وادي النيل فهو المناصف الجدير في هذا المجال، فقد كانت مصر حاضرة لغوية مهمة، ولاسيما فيما يتعلق بالترجمة، إذ يعدّ حجر رشيد المكتشف في العام ١٧٩٩م نقطة انطلاق فكّ الرموز المصرية القديمة من قبل الفرنسي جان شامبليون، وهذا الحجر قد كُتب باللغتين المصرية واليونانية^(٣٢)، وهذا مثال حيّ على أسلوب الترجمة لدى قدماء المصريين، ناهيك عن معجمات مصرية كثيرة جمعت اللغتين المصرية واليونانية، ففي القرن الخامس قبل الميلاد جمع لغوي مصري يدعى كريمون مجموعة ألفاظ ترجمها إلى اليونانية، وكذلك لغوي مصري يدعى حورس وضع معجماً يحتوي على ١٨٩ كلمة مصرية مترجمة إلى اليونانية^(٣٣)، فضلاً عن العديد من النصوص التي كتبت بلغات وخطوط متعددة استعملوها في حياتهم المختلفة^(٣٤).

إنّ النظام المعجمي التقليدي الذي عُرف به الهنود والإغريق والرومان والعرب إنّما هو نظام متطور جداً عن سابقه من حضارات السومريين والمصريين والصينيين، إذ أخذ بعداً منهجياً متكاملًا، ولاسيما بعد أن لجأ المعجمي إلى أخذ المفردات اللغوية من أفواه المتكلمين، قاطعاً إليهم أشواطاً من الأزمان والأماكن للحصول على المعاني الدقيقة، وهذا لا يبدو على عمل المعجمات القديمة جداً، وإنما هي عبارة عن مجموعة ألفاظ ذات ميزات دينية أو أدبية أو سياسية لها غايات قد تبتعد كثيراً عن علم اللغة^(٣٥)، إلا أنّها بطبيعة حالها قد خدمت علم اللغة وتاريخ اللغة باعتبارها الرافد الثاني للدرس اللغوي القديم.

٣- قواعد اللغة

تعدّ القواعد التركيبية اللغوية المحور الثالث من محاور علم اللغة، وقد تناول الباحثون هذا المضمار بشكل مستفيض من خلال استعراض أهم المدارس اللغوية القديمة التي تناولت نحو لغة ما للتعرف على مواطن الأصول والتأثير، ولسنا بهذا الصدد، فلقد اتجه العقل الإنساني منذ بواكيره إلى استدامة المقدس من جميع نواحيه، فكانت اللغة جزءاً رئيساً من ذلك المقدس، وعادةً ما يلجأ إلى توحيد الفكر الديني من خلال ضبط التفكير وحصره بالمحيط الميثولوجي عن طريق تقديس المتعلقات الدينية ولاسيما اللغة، فكانت دعوته دائماً إلى توحيد الرؤى ورصّ الصفّ التفكير والذهني، وإذا ما تعلق هذا الأمر باللغة فعليه أن يجعل لها قواعد وأنظمة توحد الألسنة والأفكار في التعبير عن المعاني، ولا يمكن

توحيد النظام الكلامي إلا من خلال تقديس لغة معينة وجعل تعلم قواعدها من رياضات الروح والعقل، ولذلك حاول العراقيون القدماء توحيد لغتهم وألسنتهم ليتمكنوا من توحيد عبادتهم وأفكارهم^(٣٦)، فأسس الأكاديون بشقيهم البابلي والآشوري قواعد للغة السومرية^(٣٧)، وتعدّ هذه الانطلاقة الأولى لتعلم قواعد علم اللغة، والتي سبقت الدرس الهندي بزمان طويل، أضف إلى ذلك أنّ الإله تحوت المصري هو مؤسس علم اللغة لدى قدامى المصريين^(٣٨)، كما أنّ الصينيين اخترعوا لهم نظاماً قواعدياً للغتهم وكذلك اليابانية والتيبية^(٣٩).

إنّ محاولة المختصين وضع تاريخ للنحو في العالم يبدأ بالنحو الهندي والإغريقي إنّما هي إشارة مغلوطة لما جاء في الأحافير والرقم الطينية من دلائل وإثباتات تؤكد أن هناك أمماً قد سبقتهم في وضع تلك القواعد، فنحن لا ننكر أنهم قد جاءوا بمنهج شبه متكامل يفوق سابقهم كثيراً، بل لا يمكن وضع حدود لأوجه المقارنة، ولكن تبقى الريادة والأصالة سبباً وجيهاً للبحث والتعرف على نقاط الانطلاق، كما أنّ التطور والتكامل لا يصادر الأصالة، فالنحو العربي لم يستطع أن يثبت أنه علم لغة عربي خالص، ولاسيما بعد اكتشاف تأثره الواضح بالمناهج السابقة والمنطق المتبع في التأليف والتحليل، وبذلك تكون حلقة علم اللغة القديم قد ظهرت بعض ملامحها، فعسى أن يسعفنا علم الآثار والتاريخ باكتشاف مواطن جديدة ومهمة تخدم الدرس اللغوي وعلم اللغة التاريخي.

الخاتمة

تتجه اللسانيات التاريخية إلى محاولة جادة في المزج بين الواقع اللغوي والتخمين التاريخي، فقد كانت المسائل اللغوية القديمة عرضة للتحليل الفلسفي الذي يأتي كثيراً بنتائج قابلة للتفنيد تصطدم مع الحقيقة العلمية، وهذا ما ذهب به مؤرخو علم اللغة في التركيز على حقبة معينة وإهمال أخرى كان الأجدر بها أن تكون في طليعة الاكتشاف والتأسيس، ومن هذا المنطلق توصل البحث لبعض النتائج منها:

- ١- إنَّ اختزال علم اللغة بالقواعد والنحو أمر غير صائب، ويجب أن يكون النظام الكتابي هو نقطة انطلاق الدرس اللغوي.
- ٢- لا يمكن عدّ النحو الهندي هو أقدم الأنحاء تاريخياً إذ يثبت التاريخ أن النحو السومري والأكادي والمصري والصيني قد سبق الهندود وغيرهم.
- ٣- أهمل علم اللغة القواعدي جانب الترجمة وجعله جزءاً هامشياً يكاد لا يعدّ من ضمن محددات علم اللغة، وهو في الواقع جزء رئيس من هذا العلم.
- ٤- إنَّ علم التاريخ والآثار مسعف مهم جداً لحلّ الكثير من المسائل اللغوية، إذ على المتخصص في المنهج التاريخي أن يجعل من التاريخ ثيمة أساسية لاستكمال بحثه اللغوي.
- ٥- لا يوجد سبق فكري على حساب آخر، فجميع المعارف ولاسيما علم اللغة تنتمي إلى وحدة فكرية متكاملة، وإنما السبق في تدوين نشأة الأفكار ومكان تدوينه، فربما هناك أمة قد ابتدعت شيئاً ما ولم يتسنّ لأبنائها تدوين ذلك وظهر في أمة أخرى، هذا الأمر لا يجعلها أمة مبدعة، وقد يكون العكس.

الهوامش

- (^١) ينظر: في نشأة اللغة: ٢٢.
- (^٢) ينظر: البحث اللغوي عند الهنود: ٣، وتاريخ التفكير اللساني: ٤٥٣.
- (^٣) ينظر: البحث اللغوي عند الهنود: ١٣-١٤، وتاريخ الدرس اللغوي: ١٣-٢١.
- (^٤) ينظر: النحو العربي والدرس الحديث: ٤٩-٥٠.
- (^٥) ينظر: البحث اللغوي عند الهنود: ٣٤.
- (^٦) ينظر: فن النحو بين اليونانية والسريانية: ٢٢-٣٥.
- (^٧) إمبراطوريات الكلمة: ٢٠.
- (^٨) ينظر: تاريخ الخط العربي وآدابه: ١٥.
- (^٩) ينظر: موجز تاريخ علم اللغة: ٣٣.
- (^{١٠}) ينظر: تاريخ الكتابة: ٢١٧-٢١٩.
- (^{١١}) ينظر: قواعد اللغة السومرية: ١٦.
- (^{١٢}) ينظر: الكتابات والخطوط القديمة: ٧٥، ومدخل إلى نصوص الشرق القديم: ٥.
- (^{١٣}) ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ٧٨، والسومريون (صموئيل نوح كريم): ٤٣٢.
- (^{١٤}) ينظر: الحروف الهجائية - أصلها تطورها: ٣١.
- (^{١٥}) ينظر: النظام السيميائي للخط العربي: ٢٨-٣١.
- (^{١٦}) ينظر: اللغة المصرية القديمة: ٣١.
- (^{١٧}) ينظر: مفتاح اللغة المصرية القديمة: ١٣.
- (^{١٨}) ينظر: موجز تاريخ علم اللغة: ٣٢.
- (^{١٩}) ينظر: إمبراطوريات الكلمة: ١٩٨.
- (^{٢٠}) ينظر: في نشأة اللغة: ٢١٧.
- (^{٢١}) ينظر: مفتاح اللغة المصرية: ١.
- (^{٢٢}) ينظر: اللغة المصرية القديمة: ٣١.
- (^{٢٣}) ينظر: النظام السيميائي للخط العربي: ١٠.
- (^{٢٤}) ينظر: حفريات في اللغة: ١٠.
- (^{٢٥}) ينظر: تاريخ الكتابة: ٢١٣-٢١٤.
- (^{٢٦}) البابليون: ١٨٥.
- (^{٢٧}) ينظر: المعجم العربي: ١٧٩.
- (^{٢٨}) ينظر: حضارة وادي الرافدين: ١٤١-١٤٣.
- (^{٢٩}) ينظر: العراق في التاريخ القديم: ٦٥، والخطاب الآشوري الوجيز: ٥.

- ^{٣٠} ينظر: علم اللغة نشأته وتطوره: ٦.
^{٣١} ينظر: إمبراطوريات الكلمة: ٢١٤-٢١٥.
^{٣٢} ينظر: مفتاح اللغة المصرية القديمة: ٧.
^{٣٣} ينظر: مفتاح اللغة المصرية القديمة: ١٥-١٦.
^{٣٤} مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة/ حضارة وادي النيل: ٨٧.
^{٣٥} ينظر: السومريون(صموئيل نوح كريم): ٦.
^{٣٦} ينظر: التاريخ واللسانيات: ٥٥.
^{٣٧} ينظر: البابليون: ١٨٥.
^{٣٨} ينظر: مفتاح اللغة المصرية القديمة: ١٢.
^{٣٩} ينظر: إمبراطوريات الكلمة: ٢٢٨-٢٢٩.

روافد البحث

- إمبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم - نيقولاس أوستلر - ترجمة د.محمد توفيق البجيرمي - دار الكتاب العربي - بيروت ٢٠١١م.
- البابليون - هاري ساكيز - ترجمة سعيد الغانمي - دار الكتاب الجديد - ط ١ - لبنان ٢٠٠٩م.
- البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب - د.أحمد مختار عمر - دار الثقافة - بيروت ١٩٧٢م.
- تاريخ التفكير اللساني/نشأة اللغات الواصفة في الشرق والغرب - سليفان أورو - ترجمة عبد الرزاق بنور - دار سيناترا - ط ١ - تونس ٢٠١٠م.
- تاريخ الخط العربي وآدابه - محمد طاهر الكردي - المطبعة التجارية الحديثة - ط ١ - مصر ١٩٣٩م.
- تاريخ الدرس اللغوي قديماً وحديثاً - نادية رمضان النجار - مؤسسة حورس الدولية للنشر - الاسكندرية ٢٠١٥م.
- تاريخ الكتابة - يوهانس فريدريش - ترجمة د.سليمان أحمد الضاهر - منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب - ط ٢ - دمشق ٢٠١٣م.

- التاريخ واللسانيات - عبد الأحد السبتي - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط - المغرب ١٩٩٣ م.
- الحروف الهجائية أصلها، تطورها، انتشارها - محمود شكري الجبوري - منشورات المجمع العلمي - بغداد ٢٠٠٩ م.
- حضارة وادي الرافدين (سومر - آشور - بابل) - قاسم مطر التميمي - بيت الحكمة - ط ١ - بغداد ٢٠١٠ م.
- حفريات في اللغة - محمد شفيق - النشر العربي الإفريقي - الرباط ١٩٩١ م.
- الخطاب الآشوري الوجيز - عوديشو ملكو آشيثا - دار المغرب للنشر - بغداد ٢٠٠٦ م.
- السومريون تاريخهم حضارتهم وخصائصهم - صموئيل نوح كريم - ترجمة د. فيصل الوائلي - مكتبة الحضارات - ط ١ - بيروت.
- العراق في التاريخ القديم/موجز التاريخ الحضاري - د. عامر سليمان - دار الكتب للطباعة والنشر - الموصل ١٩٩٣ م.
- علم اللغة نشأته وتطوره - د. محمود جاد الرب - دار المعارف - ط ١ - مصر ١٩٨٥ م.
- فن النحو بين اليونانية والسريانية - ترجمة ودراسة لكتابي ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي - ترجمة ماجدة محمد أنور - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠١ م.
- في نشأة اللغة/من إشارة اليد إلى نطق الفم - مايكل كورباليس - ترجمة محمود ماجد عمر - عالم المعرفة - الكويت ٢٠٠٦ م.
- قواعد اللغة السومرية - د. فوزي رشيد - دار صفحات للدراسات والنشر - ط ١ - دمشق ٢٠٠٩ م.
- قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي - د. عبد المحسن بكير - الهيئة المصرية للكتاب - ط ٤ - مصر ١٩٨٤ م.
- الكتابات والخطوط القديمة - تركي عطية الجبوري - مطبعة بغداد - بغداد ١٩٨٤ م.
- الكتابة المسمارية والحرف العربي - د. عامر سليمان - مطبعة جامعة الموصل - الموصل.
- اللغة المصرية القديمة - د. عبد الحليم نور الدين - كلية الآثار - ط ٩ - القاهرة ٢٠١١ م.

- مدخل إلى نصوص الشرق القديم - فراس السواح - منشورات دار علاء الدين - دمشق.
- المعجم العربي نشأته وتطوره - د.حسين نصّار - دار مصر للطباعة - ط٤ - مصر ١٩٨٨م.
- مفتاح اللغة المصرية - أنطون زكري - مكتبة مدبولي - ط١ - القاهرة ١٩٩٧م.
- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - طه باقر - دار الوراق للنشر - ط١ - بغداد ٢٠٠٩م.
- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / حضارة وادي النيل - طه باقر - دار الوراق للنشر - ط١ - بغداد ٢٠١١م.
- موجز تاريخ علم اللغة/ في الغرب - ر.ه.روبنز - ترجمة د.أحمد عوض - عالم المعرفة - الكويت ١٩٩٧م.
- النحو العربي والدرس الحديث - د.عبد الرّاجحي - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٦م.
- النظام السيميائي للخط العربي في ضوء النقوش السامية ولغاتها - د.يحيى عابنة - منشورات دار اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩٨م.